يومية تولستوي

***

منذ أشهر اصدر تشيرتكوف أحد اصدقاء الفيلسوف الروسي تولستوي كتاباً دعاه « يومية تولستوي » . وهو مجموعة ما كان يسطره ذلك الكاتب العظيم لنفسه يوماً فيوماً في مفكرته غير قاصد ان يطلع أحداً عَلَى ما فيها . فلما اخترمته المنون رأى تشيرتكوف أن يطبع هذه المفكرة وينشر مكنوناتها لئلا يُحرم الجمهور ما فيها من الفوائد والعبر والافكار السامية

وهذه اليومية — اذا نظرنا اليها نظرة اجمالية — كتاب حكمة عميقة ثائرة . ففي كل نص منها تقريباً أثر بحث شديد دقيق عن أسمى الافكار والحقائق . هي صفحات كتبها الحكيم المتهيج لنفسه لا للقارىء دون ان يهتم بحلتها الخارجية ، او بتشذيبها ، أو بتطبيق متناقضاتها . هي محادثات حرة جرت بين الكاتب ونفسه في مواضيع شتى اهمها — الله ، ومعنى الحياة ، وشؤونها السامية ، والموت ، وزلات البشر ، ونقائصهم . وهذه الاخيرة كان تولستوي يراها في نفسه بجلاء مؤلم ولسنا مبالغين اذا قلنا عن هذه اليومية انها نبذة من تاريخ نفس نادرة العظمة والجمال

قد حفظ لنا تاريخ آداب البشر كتب « اعتراف » يبوح فيها مؤلفوها

باسرار حياتهم ومكنونات قلوبهم. وهي كثيرة ، واهمها اعتراف اوغسطينوس وبنفينوتو ، وتشيليني ، ولامارتين ، وجان جاك روسو . ولكن يومية تولستوي ليست لتحسب من هذا القبيل ، ففي تلك آداب منسقة يكتبها صاحبها وهو وينظر من طرف خفي الى قراء الحاضر والمستقبل لينال اعجابهم ، وفي هذه تصريحات نفس تناجي نفسها غير مبالية باحد .

وها نحن موردون امثلة منها للقراء —

في ٧ من تشرين الاول سنة ١٨٩٥ كتب تولستوي في يوميته ما يأتي —

« طالما رغبت العذاب واشتهيت الاضطهاد . ذلك يعني اني كنت كسولاً ولم اشأ ان اعمل شيئاً ، بل كنت اريد ان يشتغل سواي عني ، فينالني من جراء ذلك عذاب ، فأصبر . »

وورد في مكان آخر ما يأتي —

فكرت مراراً في أمر الله وحقيقة الحياة ، فخيل لي اني شككت في هذا وذاك وصدقت براهيني . ولكني منذ أمد قصير خطر لي أن الجأ الى الايمان بالله وبخلود النفس ، فشعرت لدهشتي بيقين ثابت هادىء لم اشعر به قبلاً . اما شكوكي وبراهيني السابقة فلم تكتف بأن تضعف وتأخذ في التلاشي بل انقلبت الى موء كدات تدعم ايماني . »

وجاء في ٢٦ من كانون الثاني للسنة نفسها ما يأتي —

« اضطجعت لانام فلم ينطبق لي جفن . وتمثل لي جلياً نوع من ادراك الحياة هو هذا — لو فرضنا اننا كلنا مسافرون في طريق واحدة ، وامامنا

محطة واحدة علينا ان نمر بها اجمعين في حالات متساوية ، أفلا يجدر بنا اذن ان نجتازها نشيطين ، فرحين ، متفقين ، متساندين ، جادين ، غير مستائين من ان يذهب الغير قبلنا أو نحن قبله الى حيث كلنا صائرون لا محالة ؟ »

ومما يجدر بالذكر تصريحات كتبها تولستوي في يوميته وهو لم يزل في صباه . ففيها تنكشف صفحات مطوية من حياة هذا الحكيم ، وبيان للقارىء بعض ما كان هذا الحكيم يراه في نفسه من العيوب فيتوق الى اصلاحها .

من هذا القبيل ما جاء في يوميته بتاريخ ٨ من تموز سنة ١٨٥٠ . وهو شرح حبه لفتاة أولع بها في مدينة كازان —

« ان الحب والدين لمظهران من مظاهر الشعور السامي النقي . لست ادري ما يدعوه الناس حباً . فاذا كان الحب ما قرأت عنه وسمعت ، فانا لم اذقه قط . رأيت زينايدا سابقاً عندما كانت طالبة علم في مدرسة عالية فأعجبتني ، ولكن معرفتي بها كانت قليلة . مكثت في مدينة كازان اسبوعاً ، ولو سئلت لِمَ مكثت فيها كل هذه المدة ، وماذا لذّ لي هنالك ، ولم كنت سعيداً ؟ لما قلت جواباً عَلَى ذلك — اني فعلت ما فعلت لاني احببت ، فاني لم اكن اعرف معنى الحب . ويلوح لي ان جهلي ذلك الامر لهو اهم خصلة في الحب ، بل هو كل ما تتألف منه محاسن الحب . وما ألطف ما شعرت به في ذلك الزمان . لم اكن اشعر بانثقال هذه الشهوات الطفيفة التي تشوه ملذات الحياة أجمع . ما قلت لها كلمة عن حبي ، ولكني موقن انها تعرف

شعوري نحوها . واذا كانت تحبني ، فلانها فهمتني . ألا ان نزعات النفس كلها نقية سامية في بدئها ، ولكن الحوادث الواقعية تشوه طهارتها ومحاسنها »

ومنه ما ذُكر بتاريخ ١٦ حزيران سنة ١٨٤٧ وهو —

« لقد بدأت بالتعود عَلَى القاعدة الاولى التي سننتها لنفسي ، وها الان اسن لنفسي قاعدة أخرى وهي — انظر الى محضر النساء نظرك الى سيئة لا بدّ منها من سيئات الحياة الاجتماعية ، وابتعد عنه ما استطعت . ألا ، ليت شعري ، عمن نأخذ محبة اللذات ، والتنعم ، والسخافة في كل أمر ؟ أليس عن النساء ؟ وعَلَى من الذنب في فقداننا عواطف سامية غريزية كالشجاعة والثبات والرصانة والانصاف وسواها ؟ أليس عَلَى النساء . النساء اسرع اكتساباً من الرجال ، ولذا كنّ في أعصر الفضيلة خيراً من الرجال . اما في هذا العصر الفاسد — عصر العيوب والخلاعة فهنّ اسوأ منهم . »

وفي سنة ١٨٥١ كان تولستوي يعالج كتابة رواية فشقّ عليه العمل ورأى من نفسه عجزاً فكتب في يوميته —

« لم اصنع شيئاً . تُرى أأنا ذو موهبة كالكتبة العصريين ؟ لا لستُ عَلَى شيء من ذلك ... »

هذا قليل من كثير نكتفي به لضيق الفسحة رغم حب الاستزادة . والفرق بين مؤلفات تولستوي ويوميته ان في تلك انشاءً جميلاً وفناً ، وفي هذه اقرارات ليست عَلَى شيء من الفن . تلك كتبها للناس وهذه كتبها لنفسه . وبالاختصار هذه اليومية هي نتيجة عمل افكار وشواعر وضمير .